نقدية المؤرخ وإشكالية التناول في الكتابة التاريخية
هشام جعيط في كتابه " الفتنة " نموذجاً

■ الباحث
وليد خالد احمد *

ان ما يعوق العرب اليوم ، هو تهيبهم من الخوض في امهات المسائل والقضايا .. وكثيراً ما اعتبرت بعض المسائل التاريخية من المقدسات التي لا تمس ، واذا ما تطرق اليها بعض من جلّة العلماء الذين يحظون بالثقة والاحترام ، فكثيراً ما تُحنط المسألة وكثيراً ما يقدس الشيخ ، وكثيراً ما يقع الاحجام عن تناول هذا الموضوع او ذاك ، لأن القراء غالباً ما يعتقدون ـ وهو خطأ شائع ـ ان لا احد يستطيع ان يضيف جديداً لما كتبه هذا الباحث او ذاك ، وهذه الحال تنطبق على موضوع كموضوع " الفتنة " او " الفتنة الكبرى " في التاريخ الاسلامي . فقد تناول هذا الموضوع البعض من كبار الباحثين العرب ، اضافة الى الكثيرين من اهل الاختصاص في اوروبا وامريكا وغيرها . ولئن سعى هؤلاء الى الالمام بموضوع شائك كموضوع الفتنة وتقديم قراءات فيها جرأة غير مسبوقة . فهذا لا يعني ان الموضوع قد انتهى امره او استنفذت الرؤى وزوايا النظر التي منها ينطلق البحث في

* باحث في الفكر المعاصر، المجمع العلمي العراقي.

هذه المسألة . فالموضوع يظل حظيرة مفتوحة بل يمكن القول انه حظيرة ليس من السهل اغلاقها او الشعور براحة النفس وهناء البال ازاءها. من هنا ابتداءاً .. اثيرت العديد من الاسئلة حول : ما بواعث انبثاق ظاهرة الاغتيال السياسي ، وبالذات اغتيال الخليفة ؟ فمعروف ان ثلاثة من الخلفاء الاربعة انتهوا مغتالين . . وما معنى التحكيم والشورى والتحالف والخديعة والمواثيق المبرمة والعقود المخروقة ؟ ما معنى العدالة في الاسلام الراشدي ؟ وما هي الفلسفات العديدة المتصارعة حول الحكم ؟ الى أي حد ما يزال هذا كله يثقل على عقليتنا السياسية الحالية وفهمنا لتفاعل السياسة والدين ؟ ما هو الايجابي وما هو السلبي في هذا كله ؟

هذه الاسئلة بين اخرى كثيرة ينبغي ان يعالجها كل مؤرخ جدي يعكف على دراسة التاريخ الهجري الاول ، المرحلة التأسيسية من تاريخ الاسلام

معلوم ، ان منهج البحث التاريخي في تناوله لأي موضوع اشكالي ، كموضوع الفتنة مثلاً ـ يتطلب تقييم المصادر الاولية لمعرفة طبيعة المعلومات التي تقدمها ، واساليب المؤرخين الذين كتبوها ، وميولهم وولاءاتهم ، واثر ذلك في ما قدموا من روايات . . ولابد للباحث ان يعرف من اين استقى المؤرخون رواياتهم واخبارهم ثم مواقفهم منها من حيث النقد والتوثيق . وهذا الامر ازداد اهمية في دراسة بعض المعلومات والفترات لأختلاف الروايات ولتصارع الميول والولاءات حولها ، مما يتعذر معه البحث الجاد فيها دون هذا التقييم . وهذا يصدق بصورة خاصة على موضوع " الفتنة " .

وقد شاع ان المؤرخين العرب لا ينتقدون ولا يحللون ، وانهم يكتفون بالنقل وبالسرد وهو رأي ما يبرره في ظاهر الاشياء اذا اريد بذلك تحليل الروايات والاستنتاج منها . فالمؤرخون يحذرون من الهوى في تناول الاحداث ، ويرون في التحليل خروجاً على الموضوعية .. ولكن هل يقف النقد والتقييم والتحليل والاستنتاج عند حد انتقاء الروايات من مصادرها وتقييمها ، ام ان للمؤرخ اطاراً يضع فيه الروايات التي ينتقيها ؟ وهل يكتفي المؤرخ بنقل ما ينتقي

ام انه يتصرف ببعضه ليناسب الوجهة التي يراها ؟

هذا التساؤل يدعو الى عدم الاكتفاء بتقييم المصادر كلاً على حدة كسبيل لفهم ما جرى في " الفتنة " مثلاً ، بل دراسة مصادرها دراسة مقارنة لتتبين وجهة كل من المؤرخين الذين تناولوها ، للتعرف الى مناهجهم واساليبهم بصورة دقيقة .

ان هذا المنهج يُمكن من التعمق في فهم احداث الفتنة من جهة ومن التعرف بصورة ادق على مؤرخيها من جهة ثانية . ولعل مثل هكذا دراسات تلقي الضوء على قيمة المصادر التاريخية الاولى في فترة بدأ البعض يشكك في مصداقية هذه المصادر وفي قيمة رؤياتها . ويدعي انها لا تمثل روايات الفترة التي تتحدث عنها ، بل انها من وضع فترة متأخرة ، وتمثل اهواء تلك الفترة واتجاهاتها .

كما انطلق البعض في دراسة هذه المسألة من مقتل عثمان وأوصلها الى مقتل علي ، وهو رأي فيه كثير من السداد ، ولكن هذا لا ينفي الرجوع بالمسألة حسب رأينا الى يوم السقيفة . وهذا ما يقترحه بعض من كتب في هذا الموضوع ، فلا يمكن في رأيهم الكلام على الفتنة دون العودة بها الى اصولها ، أي دون الانطلاق بها من يوم السقيفة ، ولعله محق في ذلك . فالنصوص المصدرية تعطي رأيه كثيراً من الوجاهة .

* الجذور الأولى للفتنة

لم يقترن لفظ بحدث في تاريخ الدولة الاسلامية مثلما اقترن بلفظ " فتنة " بمقتل عثمان بن عفان (٣٥هـ/ ٦٥٦م) وبالوقائع التي تلته ونتجت عنه . وقد وصفت الفتنة غالباً بكونها كبرى لقتل المسلم اخاه المسلم لاول مرة في تاريخ الاسلام ، ولظهور العصبيات الجاهلية القديمة تحت غطاء الدين بعد ان خمدت نارها مرة اولى بعد فتح مكة (٨هـ/ ٦٢٩م) ثم ثانية بعد حروب الردة في عهد ابي بكر الصديق . فلم يعرف التاريخ الاسلامي في مختلف مراحله فتنة بهذا الحجم .

ولئن حددت الفتنة تاريخاً بمقتل عثمان ثم بوقعتي الجمل وصفين ووقعة النهروان ، فأنها قد بدأت فعلاً في نظرنا مباشرة بعد وفاة النبي ، اذ عظمت بوفاته مصيبة المسلمين ، كما تقول عائشة زوج النبي

واجتماع السقيفة كان مؤشراً اول لنشوء الخلافات من اجل الخلافة بين المهاجرين والانصار .

كان اجتماع السقيفة سنة (١١هـ) مؤذناً اول بتفرق الامة ، وهو يمثل مرحلة فاصلة بين عهدين ، عهد النبوة في اجلى مظاهره وعهد الخلافة بايجابياته وسلبياته . ورغم اهمية هذا الحدث ، فان الدارسين لم يعيروه من الاهمية ما يكفي ، لانهم ربطوا مفهوم الفتنة بأراقة الدم وتكفير المسلم اخاه المسلم ، كما ربطوه بظهور الفرق الاسلامية عامة وفرقة الخوارج بصفة خاصة لما كان بينها وبين علي من خلافات ادت الى اراقة الدماء وموت مئات المسلمين من الطرفين في معركة النهروان ، ولئن خلا اجتماع السقيفة من سفك الدماء فانه زرع في النفوس البغضاء والحقد وجعل المسلمين شقين ، شق الانصار وشق المهاجرين ، والانصار اوس وخزرج وهما قبيلتان متناحرتان متباغضتان في الجاهلية ، طامحتان الى السيادة بعد الدخول في الاسلام .

والسيادة غير السيادة التي كانت في الجاهلية ، وذلك ان السلطة قبل الاسلام كانت لا تتجاوز امر القبيلة ، وستكون بعد الاسلام سيادة على الخزرج والاوس لو آلت الامور الى سعد بن عبادة الانصاري .

إما المهاجرون ، فبعضهم من قريش مثل علي وعثمان ، وبعضهم من قبائل صغرى من قريش مثل ابو بكر وطلحة من تيم وعمر وسعد بن زيد من عديّ وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص من زهرة ، والزبير بن العوام من اسد ، وابو عبيدة بن الجراح من فهر .

وحتى الذين من قريش ، فهم ينتسبون الى عشيرة عبد مناف الابن الثاني لقصي وهذه العشيرة منقسمة بدورها الى فخذ هاشم الذين سيعرفون فيما بعد بالهاشميين ، ومنهم النبي وعلي وفخذ عبد شمس الذين سيعرفون بالأمويين نسبة الى أمية بن عبد شمس ، ومنهم عثمان ومعاوية .

في اليوم الذي توفي الرسول وبقيت الامة بلا خليفة او امام ، وجب ان ينتخب لها المسلمون خليفة او اماماً . وقد نظر المحدثون والفقهاء فيما بعد في فكرة الامام الجائر لمدة خمسين سنة يكون خيراً من امة بلا امام ساعة واحدة من النهار. ولكن ضرورة الاسراع بتعيين خليفة للمسلمين لم

تمر بلا جروح .

ففي اللحظات الاولى من بعد وفاة الرسول وقبل مواراته التراب ، اجتمع الانصار بسرعة تكشف عما في صدرورهم للبت في امر الخلافة وقطع الطريق على المهاجرين حتى لا يطلبوها . فكان ذلك بدءاً لنشوء الفتنة الذي يبدو انه سيؤسس الى اختلافات وضغائن واحقاد لن تموت ما دامت السلطة محل اطماع وتنازع ، وليس اول على ذلك من سعي الانصار الى اقتسام السلطة بصورة تناوبية (منا امير ومنكم امير) او بصورة هرمية (من المهاجرين الوزراء ومن الانصار الوزراء) فلم يكن عدم الانسجام واضحاً بين المهاجرين والانصار فقط وانما برز المهاجرون في شكل مجموعات غير متجانسة يمثلها آناس من كبار الصحابة والمقربين من النبي مثل طلحة والزبير وعلي بن ابي طالب .

ومهما كانت المبررات التي تقف وراء غياب علي يوم السقيفة ، فالمؤرخ لا يمكن ان لا يتأول هذه المسألة بما يراه مناسباً او بما يعتقد انه مبرر كافٍ للاقناع . الحضور والغياب لهما دلالاتهما السياسية والاجتماعية . وهو ما يوصي بأن الاسلام لم يوحد الناس بشكل نهائي اذ لا يزال الناس على قبليتهم وعلى انتماءاتهم المختلفة وكل منهم يرى نفسه احق بالخلافة من غيره حسب الاسباب اني يراها تبوئه هذه الاحقية .

لقد قادنا النظر في النصوص القديمة ومقارنة بعضها ببعض ، الى ان نرجع جذور الفتنة لا الى سنة مقتل عثمان بل الى اجتماع السقيفة سنة (١١هـ/ ٦٣٢م) الذي كان في نظرنا نقطة البداية للتصدع الذي حصل في كيان الامة الاسلامية ، والنبي لم يوار التراب بعد . فقد انقسم المسلمون من جديد في السقيفة الى مهاجرين وانصار بعد ان آخى الرسول بينهم وعاشوا في وئام اثنتي عشرة سنة .

وكان اعلان سعد بن عبادة في اجتماع السقيفة عن مشروعه السلطوي في غياب كبار الصحابه المهاجرين آيذاناً ببداية الفرقة وظهور الفتنة ، فقد طلب الانصار الخلافة لانفسهم وأصر المهاجرون على الا يكون الا فيهم ولم يرضوا حتى بالتداول عليها مثلما اقترح الانصار (منا امير ومنكم امير) ، فلم يكن الخلاف بين

المسلمين يومها بالبساطة التي تتبادر الى الذهن حتى وان حسم الخلاف دون اراقة دماء . فليس خافياً علينا ان سعد هيأ كل الظروف لتكون الخلافة من نصيبه من ذلك اختيار المكان واعداده لخطبة ألقاها باسمه ابنه امام المجتمعين في السقيفة يبرز فيها خصال والده ويدعوهم فيها الى مبايعته .

فقد كان سعد حامل راية المسلمين في فتح مكة ، وهو الذي عذبته قريش بعد بيعة العقبة ، وصبر على ذلك نصرة للدين الاسلامي ، كما كان الناطق باسم الانصار لدى الرسول أثر غزوة حنين عندما حرم قومه من نصيبهم في الغنائم ، ووزعت على قريش وقبائل اخرى باستثناء الانصار ، فأعلى النبي من شأنه وشأن قومه بقوله : ((لو سلك الناس شعباً وسلكت الانصار شعباً لكنت من شعب الانصار)) فكانت هذه المزايا مشجعة له لطلب الخلافة زيادة على مزايا اخرى عرف بها الجاهلية يشهد له بها الخزرج واعداؤهم الاوس . ولما أفشل الثالوث القوي ابو بكر وعمر وعبيدة بن الجراح مشروع ابن عبادة ، غادر هذا الصحابي الاجتماع ولم يبايع ابا بكر الى ان مات.

كما لا يخفى علينا ان بعضاً من الصحابة من اولي الفضل والسابقة والمآثر .. كانوا يتوقون الى منصب الخلافة ، فاعتبروا تعيين ابي بكر تجاوزاً لهم وتقليلاً من شأنهم . وهذا ما أعلنه صراحة علي بن ابي طالب الذي كان مشغولاً بغسل النبي وتجهيزه وقت انعقاد الاجتماع ، فلم يبايع ابا بكر الا بعد ايام من مبايعة المسلمين له .

وكان يرى نفسه احق بالخلافة من كل الصحابة باعتبار السابقة والفضل والقرابة بالنبي ، فهو ابن عمه وزوج ابنته فاطمة ، زيادة على كونه تربى على يديه وهو حسب الشيعة اول من آمن من الرجال بالرسالة المحمدية بعد خديجة ، وهو فوق كل ذلك هاشمي من قريش وابو بكر من تيم ، احدى قبائل قريش الصغرى .

فلئن فضت المشاكل الناجمة عن اجتماع السقيفة دون اراقة دماء ، فانها خلقت في النفوس شعوراً بالضيم والحيف والتجاوز ، بل كانت مصدراً من مصادر الفتنة التي لم تستعر نارها الا بعد سنوات قليلة من اجتماع السقيفة . وليس كل فتنة آيلة الى قتل

كما نص على ذلك القرآن . ولذلك كله اعاد بعض الباحثين النظر في الجذور الاولى للفتنة الكبرى ، واستنطق نصوصاً لم يَفَها الدارسون حقها من الاستنطاق ، فوجدوا ان الخلاف بين المسلمين لا بين القبائل التي اشرأبت اعناقها الى السلطة ـ على حد قول عائشة بنت ابي بكر وزوج النبي ـ كان على اشده بُعيد وفاة الرسول . فقد تاق اليها زيادة على سعد بن عبادة الانصاري وعلي بن ابي طالب الهاشمي ، طلحة بن عبيد الله ، وهو من تيم التي ينتمي اليها ابو بكر . كما ارادها لنفسه الزبير بن العوام من بني عبد العُزَّى ، وهو الموسوم بحواريّ الرسول ، وامه عمة النبي . ولم لم يرتضها لنفسه عثمان بن عفان الاموي وسليل بني عبد المطلب من جهة النساء ، وخَتَنُ النبي ، وأحد المسلمين الاوائل . وقد اكدت بعض المصادر ، ان العباس عم الرسول سعى الى ان يُوغر صدر علي على ابي بكر ، فدعاه الى ان يمد يده لكي يبايعه . وكذلك ، فعل ابو سفيان بن حرب عدو الاسلام والمسلمين قبل اسلامه عندما دعا علياً بدافع النعرة القبلية الى عدم مبايعة ابي بكر .

ان هذا التململ الكبير في صفوف كبار الصحابة وفي صفوف من سيؤول اليهم تدبير شؤون الدولة الاسلامية في المستقبل ، سيحدث شرخ في كيان هذه الدولة وسيكشف بجلاء عن هذا الشرخ اجتماع اهل الشورى بعُيد موت عمر لاختيار خليفة المسلمين من بين ستة صحابة كلهم من قريش وكلهم بدريون باستثناء عثمان الذي ألحقه الرسول بهم كلهم من اهل السابقة والفضل ، وممن لم يحمل السلاح على نبي الله ، وممن فارقوه وهو عنهم راضٍ . وستقضي اعمال هذا المجلس الى نتيجة غير مرتقبة من آل البيت ، لان فيها ارضاء لبني أمية وأقصاء من جديد لبني هاشم الذين حرموا من الخلافة في السقيفة لتكون الكلمة الاخيرة للسابقة والفضل على حساب القرابة بالنبي ، واقصوا عنها بعد مقتل عمر اعلاء لمبداء الشورى ، ودعماً للمسار الشوروي الذي دعا اليه عمر وطبقه عبد الرحمن بن عوف .

كل هذه الاحداث والمواقف قد ولدت ضغينة وحقداً وشعوراً بالضيم والحيف وساهمت مع مرور الزمن في تعميق الخلاف بين المسلمين

وتلويـن الفتنة بألـوان متعـددة ، فـأذا الفتنـة في حقيقـة الأمـر فتـن متـعـاقبة ، لا تهـدأ واحـدة حتـى تظهـر اخـرى دافعـة المسلمين الى الافـتراق حينـاً والى الاجتـماع حينـاً آخـر ، والى اللجـوء الى العنـف والقـوة طـوراً والى المفاوضـات والحلـول السـلمية طـوراً آخـر .

وقـد دفـع المسـلمون جميعـاً ضريبـة هـذا الامـر فـي وقعـة الـدار وفي معركـة الجمـل ، كما دفع الخـوارج أثـر التحكيم في صفيـن ضريبـة شـق عصـا الطاعـة عـلى الخليفـة عـلي وتكوينهـم لحـزب معـارض للنظـام الحاكـم .

حـدثت اذن بـين سـنة (١١هــ) وهـي سـنة وفـاة النبـي وانعقـاد اجتـماع السـقيفة وسـنة (٤٠هــ) وهـي سـنة مقتـل عـلي ، احـداث جسـام قتـل فيهـا المسـلم اخـاه المسـلم ، واغتيـل فيهـا صحابـة مـن الرعيـل الاول مـن ذوي الفضـل والسـابقة وقـادة جيـوش وسـادة قبائـل وقـراء للقـرآن ، وانـقسمت بـين هذيـن التاريخيـن فـي فـترة خلافـة عـلي بالخصـوص ، الامصـار ، الى امصـار موالـية للنظـام المركـزي بالكوفـة وامصـار مناهضـة معاديـة ، وطفـت مـن جديـد عـلى السـطح السـياسي المصالـح الذاتيـة والعصبيـات القديمـة تحـت غطـاء الديـن ، وبدعـوى العمـل بكتـاب الله وتعاليمـه ونـصرة الحـق والعـدل والاقتـداء بسـيرة ابـي بكـر وعمـر .

* نصـوص السقيفـة

هـناك نصوصـاً لم تستنطق ، وهـي على غايـة مـن الاهميـة تشـهد بـأن الفتنة قـد بـدأت قبل سنة (٣٥هـ/ ٦٥٦م) فقـد اورد المؤرخـون وغيرهـم مـن الـرواة نصوصـاً مهمـة لا يمكـن اغفالهـا مهـما كانت الـرؤى ومهما كـانت التسـاؤلات حـول هـذا الموضـوع ، وهـي معروفـة بنصـوص السـقيفة . وهـي نصـوص متعـددة الروايـات ولكنهـا تجمـع عـلى انفصـام الامـة واختـلاف الزعـامات حـول مسـألة الخلافـة .

فقـد انقسـم المسلمون الى فـرق ونحـل ، واسـتعد كـل مـن رأى نفسـه الأحقيـة و وراءه رأفَّـة مـن القـوم تسـند ظهـره للمطالبـة بالخلافـة لنفسـه .

فيمـا يأتي ايراد لاهم هذه النصـوص :

ـ النـص الاول : ذكـره ابـن هشـام (السـيرة ج٤/ ص٦٥٤) يقـول النبـي ((ايهـا النـاس سـعرت النـار وأقبلـت الفِتـنِ كقطـع الليـل المظلـم وأني والله ما تمسكـون عـليّ بشـيء ، انـي لم احِـلَّ الا

مـا احـلَّ القـرآن ولم احـرم الا مـا حـرّم القـرآن)) .

ـ النـص الثـاني : ذكـره البـلاذري (انسـاب الاشراف ج١/ ص٥٨١) ويتضمـن قولـة للانصاريـين معـن بـن عـدي وعويـم بـن ساعدة ، وكـانا مـن اصحـاب ابي بكـر المخلصـين ، قالاهـا يـوم قبـض الرسـول واسـتعد الانصـار لمبايعـة سـعد بـن عبـادة جـاء مـا نصـه ((بينـا المهاجـرون في حجـرة رسـول الله وقـد قبضـه الله اليـه وعـلي بـن ابي طالـب والعبـاس منشـغلان بعـد اذ جـاء معـن بـن عـدي وعويـم بـن سـاعدة فقـالا لابي بكـر " بـاب فتنـة ان لم يغلقـه الله بـك فلـن يغـلق ابـداً ، هـذا سـعد بـن عبـادة الانصـاري في سـقيفة بنـي سـاعدة يريـدون ان يبايعـوه " .

ـ النـص الثالـث : ذكـره البـلاذري ايضاً عـلى لسـان ابي بكـر عنـد مبايعـة عـلي لـه بالخلافـة قـال ((سـمع العبـاس وعلـي التكبـير في المسـجد ولم يفرغـوا مـن غسـل رسـول الله ، فخـرج عـلي يقـول يـا أبـا بكـر ألم تـر لنـا حقـاً في هـذا الأمر ؟ قـال ـ بـلا ولكنـي خشـيت الفتنـة ، فقـال عـلي ـ كان لنـا حـق ولم نسـتشر والله يغفـر لـك)) وبايعـه .

ـ النـص الرابـع : يتعـلق بموقـف عمـر بـن الخطـاب مـن سـعد بـن عبـادة بعـد ان بويـع ابـو بكـر وفسـد مـشروع سـعد السـلطوي . جـاء في (انسـاب الاشراف) ان ابـا بكـر لمـا انتهـى مـن القـاء خطبتـه في اجتـماع السـقيفة بايعـة عمـر وبايـع النـاس وازدحمـوا عـلى ابي بكـر فقالـت الانصـار ((قتلتـم سـعداً وقـد كادوا يطرحونـه ، فقـال عمـر " اقتلـوه فانـه صاحـب فتنـة " .

* جعيط وكتابه الفتنة

يـعد كتـاب هشـام جعيـط مـن اهـم مـا كتـب حديثـاً في هـذا الغـرض . فقـد تنـاول مسـألة مهمـة في تاريـخ الاسـلام والمسلميـن ، وهـي مسـألة الفتنة الكبرى ، وهـي وجهـة نظـر جديـدة في مسـألة الفتنـة الكبـرى تتناسـب وظـروف العـصر ، فلعلنـا نفهـم ماضينـا بصـورة تسـمح لنـا بالاعجـاب بـه ، فنحـن معجبـون بالمـاضي الى النخـاع حتـى اننـا لا نسـتطيع ان نتجـاوزه كـما لـو ان مسـتقبلنا لا يـوجد الا في ماضينـا وانـما بتفهمـه وتفحصـه للمـضي قدمـاً في صنـع التاريـخ والمسـاهمة في بنـاء الحضارة الانسـانية مثلما سـاهم الاوائـل وقـد سـاعد تكويـن جعيـط الاكاديمـي مـن ناحيـة وتخصصـه فيمـا يعـرف

بالتاريخ الوسيط للدولة العربية والاسلامية من ناحية ثانية على دراسة الفتنة الكبرى دراسة علمية معمقة ومن حصر اهم خصائصها وابعادها السياسية والدينية والفكرية . ولكن جعيط اغرق في نظرنا في التفاصيل التي استخرجها بصفة خاصة من (انساب الاشراف ـ للبلاذري) ومن (تاريخ الامم والملوك للطبري) زيادة على كونه ربط الفتنة على عكس ما نرى بأراقة الدم متخذاً من مقتل عثمان بداية لظهورها بين المسلمين .

ولئن كان مقتل عثمان وما سيعقب ذلك من هزات منعرجاً خطيراً في تاريخ الدولة الاسلامية الفتية ، فانه لم يكن منطلقاً للفتنة بقدر ما كان نتيجة من نتائج ظهورها بين المسلمين الاوائل عقب وفاة الرسول في اجتماع السقيفة الذي خلف في النفوس الحقد والضغائن ، واعلن عن بداية الفرقة . وهي ضغائن واحقاد ستظل تنمو وتتجذر في النفوس الى ان آلت الى ما آلت اليه فتفجرت الاوضاع بمجرد اتهام الخليفة الثالث باعراضه عن طريقة الشيخين .

لقد قصد جعيط في كتابه ، كما يقول : هو وضع كتاب رجل تربى في كنف التقليد الاسلامي ، عليه ان يكافح في وقت واحد ضد الرؤية التقليدية للأمور وضد حداثة تبسيطية . لقد ساعدني التاريخ ، التاريخ الصحيح والتقويم في هذا المشروع الصعب حين جعلني أقيم مع هذه المرحلة التأسيسية للهوية الاسلامية ، علامة معرفية يخترقها التعاطف والتوادد في اعماقها حيث يتمازج المعرفي والمعاش ، العلم والحياة ، ان احياء جانب من التاريخ الاسلامي في حقيقته وكثافته ، انما هو جزء من مسيرتي الوجودية الطويلة . فهل وجدت دائماً النيرة الصحيحة ، وهل اوضحت المسائل على الدوام ، وهل تسلحت دائماً بحكم شديد .

ان ما قام به المؤرخ والمفكر العربي التونسي هشام جعيط في كتابه الاختلافي(١) الصادر بالفرنسية اولاً وبالعربية تالياً ، يكشف عن طبيعة الروايات ويغني البحث التاريخي . وقد اعتمدنا في دراستنا هذه للكتاب على الطبعة الفرنسية دون العربية ، كونها تحوي مقدمة منهجية تحليلية لمادة الكتاب ابتسرتها الطبعة العربية

كتاب جعيط هذا ، أثار وقت صدوره وما زال اسئلة عديدة كأي

كتاب هام يقاس بأهميته بحد ذاته اولاً وبضخامة الاسئلة التي يثيرها في مجاله المعرفي ثانياً . من هذه الاسئلة ما يتعلق بمنهجية كتابة التاريخ المتبعة من لدن المؤلف ، ايثاره السردية الحكائية المشبعة بالتساؤلات والتحليلات والمتوفرة على جاذبية للكتابة ، منها ايضاً ما يتعلق بتقييمه الخاص للوقائع وبعض الشخصيات .

لقد بدأ جعيط التفكير بموضوع الكتاب والتهيئة له منذ عام ١٩٦٢ – ١٩٦٣ . فمنذ تلك الفترة والقرن الهجري الاول وفتنته تشغلان تفكيره ، يطرح اسئلته الاولى على وعيه كمفكر ومؤرخ شاب .

ولما لا . الموضوع كبير (الفتنة) بلا نعت ولا صفة او ما اسماها المرحوم طه حسين بـ الفتنة الكبرى . تلك التي ادخلت امة محمد اليافعة في دوامة من الازمات والحروب الضاربة والانشقاقات الدينية ـ السياسية .

هذه الفتنة لازالت حاضرة في الوعي الاسلامي كمرجعية ، كعلامة من كبرى علامات التاريخية الاسلامية ، لكنها غير معروفة حقاً في آلياتها وتطوراتها ، فهي قد جرت في فترة الخلافة الراشدة التي يعتبرها المسلمون كفترة رحم ذات معنى سامي ، وكمثل اعلى للحكم الخليفي الحق والعادل ، انما توجد ايضاً تيارات تدين الاسلام المبكر ، اسلام الاصول ، بسبب هذه الفتنة ذاتها ، وتشير ببناه الى كل هذا الخضم من التناحر والتقاتل حتى يصل بها القول : ان هذا الاسلام انما هو اسلام سياسي حسب ، بل هو عهد المحسوبية والتنافس على الحكم والعنف المرير .

ان اهم ما ركز عليه جعيط في كتابه بوجه خاص هو الخلافة الاولى ومرحلتها الاخيرة (الفتنة الكبرى) التي شهدت طيلة خمسة اعوام وحتى اكثر ، تمزق الامة . وهذا ما حاول دراسته ومعاودة قراءته في مختلف تطوراته وشتى اشكاله ، فهذه الحقبة حقبة الازمة اولاً والحروب الاهلية ثانياً التي دارت في النصف الثاني من خلافة عثمان حتى اغتيال علي وارتقاء معاوية بعد ذلك بقليل الى سدة الخلافة الاسلامية وبالتالي حتى تأسيس الدولة الاموية .. إنما كانت حقبة أمّاً لانها اثارت انقسامات الاسلام الكبرى بين مذاهب السنة والشيعة والخوارج مباشرة او على

امد قريب او بعيد حتى ان في الامكان ان تعُزى الى تلك الحقبة الام ، كل تطورات الاسلام السياسي والاسلام الديني تقريباً وامتداداتها في العصر الكلاسيكي الطويل .. قيام الدولة الاموية ، النزاعات السياسية – الدينية في القرن الهجري الاول ، إطاحة العباسيين بتلك الدولة ، وبالتالي تصور جديد لتوازن القوى الايديولوجية والاثنية ، ادى في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي الى طرد العرب واستبعادهم من ساحة السيادة التاريخية .

هنا يقف المؤرخ ليدرس الحقائق في الأعماق ، ما الذي كان يسري تحت الفتنة ؟ هل يمكن لنا ان نتفهمها بتحليل دقيق ونقدي للمصادر ؟ ما هي التغيرات الاجتماعية ، وتصورات القوى السياسية والقوى الدينية على السواء ؟

لعل دراسة الفتنة التاريخية قد تحولت في بعض الأحيان الى فتنة باحثين وقراء لانها من المواضيع التي تعيد الى الوعي كثيراً من المشاعر والأفكار الكامنة في باطن النفوس ، ولانها مسألة مركزية في تاريخ العرب والمسلمين .

هل منها ولدت الانقسامات المعاصرة ؟

هل حسم مسألة انتقال السلطة من سقيفة بني ساعدة كان هو السبب في تكدر الخواطر واندفان الضغائن ؟

الاخبار عن الفتنة الكبرى التي هزت الدولة الاسلامية وهي في اوج قوتها وعز سؤددها كثيرة جداً توزعتها كتب التاريخ والطبقات والتراجم وقد تلونت بشتى الالوان لاختلاف الروايات وتصارع الميول والولاءات .. فلا يُعدم المؤرخ معلومات في (انساب الاشراف) للبلاذري ولا في (تاريخ الامم والملوك) للطبري ولا في غيرها من المصادر الاساسية عن مقتل عثمان بن عفان الخليفة الراشدي الثالث وعما نتج عن ذلك من تكريس للاغتيال السياسي في صفوف المسلمين من اهل الفضل والسابقة ، ومن ظهور للعصبيات القديمة ولبعض الجاهلية التي منها الاخذ بالثأر تحت غطاء الشرعية وبدعوى اقامة الحدود ومن تبلور لمفهوم المعارضة في صفوف القراء المتصلبين الذين صاروا على حد قول جعيط ((على علاقة متينة بالنص القرآني الذي خّول لهم انطلاقاً من

فهم مخصوص تجاوز الدولة باعتبار امتلاكهم لهذه المرجعية الدينية الاولى التي تفوق كل المرجعيات)) .

وقد اعتمد الدارسون المحدثون الذين أكبوا على دراسة الفتنة الكبرى على هذه المصادر الاساسية منطلقين في التاريخ لها بمقتل عثمان غاضين النظر في اغلب الاحيان عما سبق سنة (٣٥هـ/ ٦٥٦م) من احداث ، وكأن مقتل ذي النورين لم تمهد له ولم تُعن عليه سوى تصرفاته في السنوات الست الاخيرة من خلافته . وهي اقوال وافعال عابها عليه جمهور المسلمين عامة وقراء الكوفة بصفة خاصة ورأوا فيها زيغاً عن طريقة الشيخين أبي بكر وعمر .

وعن ذلك تقول بعض المصادر الخارجية النادرة ((.. فعمل عثمان بالحق ما شاء الله ست سنين وهو في ذلك دون صاحبيه والمسلمون له مجامعون ومؤازرون يعلمون ان طاعته عليهم واجبة حتى بسطت له الدنيا وفتحت له خزائن الارض فاحدث احداثاً انكرها المسلمون ولم يعرفوها من سيرة نبي الله ولا من سيرة ابي بكر وعمر من تعطيل الحدود وادالة المال بين الاغنياء واستعمال السفهاء من قرابته وتحريف كتاب الله ، ونفي ابي ذر الى الربذة ، وضرب عمار بن ياسر الى ان فتق بطنه ، وضرب عبد الله بن مسعود الى ان كسر اضلاعه ومات من ضربه . ومن ثم كان تآلبهم عليه والفتك به في وقعة الدار))(٢) .

المصادر تقدم لنا مادة خاماً فحسب ، وهذه المادة متأخرة بأكثر من قرن عن الإحداث . فالمؤرخ يغربل ويصفي ، لكن دون أن يبتعد عن دقائق الأمور . هو يحاول التفهم والربط وسير المنطق الذي حكم هذه الفترة المتشنجة ، ولذلك نجده يبتعد عن التأويل المجحف بقدر ما يبتعد عن السرد الرتيب ، إنما يحاول عبر روايته للإحداث ان يدس فيها تحليلاته وتأويلاته .

يقول جعيط : نعرف جميعاً اشياء كثيرة عن الخلفاء الراشدين ، فهذا التاريخ بمعطياته الايجابية والسلبية قد غذانا ، الا انه كلما تقدم في البحث كان يكتشف الحاجة الى اعادة النظر في أشياء وأفكار يتفق عليها الجميع ، فهي مكرسة مثبتة وجامدة إلى هذا التعميم القديم العهد على مراجعة القرن الأول انضافت لدى الشروع

بالكتابة عناصر للرغبة أخرى .

هناك أولاً الرغبة بأن يقدم للجمهور في مختلف فئاته ومستوياته رؤية واضحة لتلك الحقبة المعقدة والتي هي بالنسبة إلى المسلمين حقبة اساسية ما فتئوا يرجعون اليها باعتبارها مرحلة تأسيسية . وهناك ايضاً الرغبة بإثراء المعرفة في المجال الإسلامي . ولكن هناك ايضاً قراءة لعهد الخلافة القديمة الاولى حركتها معاً لحظة الفتنة الدامية التي اقتادت اهل السنة فيما بعد الى اضفاء القدسية على كل المرحلة حين اعلنوا الخلفاء الاربعة كخلفاء راشدين وجعلوا قسماً من عقيدتهم هذه الاعتراف به جميعاً في سياق تعاقبهم على الخلافة ـ ابو بكر ، عمر وعثمان ثم علي .

ان تلك الظاهرة هي التي قادة التشيع للتكون للتطور ثم للاستقرار في مختلف فروعه ، التشيع الذي لا يعترف الا بـ علي كخليفة حقيقي مسقطاً الاخرين في الرفض والانكار .

اخيراً مذهب الخوارج لا يعترف خلافاً لأهل الشيعة والسنة الا بخلافة الشيخين الخليفتين ما قبل الفتنة ، أي ابي بكر وعمر .

لقد استقر الوجدان الاسلامي عبر العصور على تلك المرحلة الاستثنائية لينهل منها معنى ما معتبراً انها كانت امتداداً للميتا تاريخ النبوي المحاط بهالة روحانية وانها مثلت الحكم الحقيقي حكم الخلافة الحق والشرعية .

كان جعيط ، شديد الاهتمام بهذه الفتنة في الاسلام الاول ، في حركتها الصاعدة منذ الازمة في عهد عثمان حتى المعارك الملحمية التي دارت في البصرة وصفين . فقد كانت اكثر من حرب اهلية او حرب دينية . انها مركب قوي راح يهز عناصر لا متناهية وشيء ما تطور وطور بُني وتراكيب بالغة التنوع تكاد تكون حديثة مثل ولادة الاحزاب ومؤتمر التحكيم . ومثلها مثل الثورات الكبرى كان للفتنة ايقاع لاهث وكانت تشرف عليها سماء الافكار وقد اقحمت في مشروعها الاعداد الهائلة من البشر وبالتالي وسعت مفهوم السياسي .

لقد حاول جعيط ان يمارس تاريخاً تفهمياً الى حد بعيد ، وان يغوص حتى قلب المناخ الذهني والعقلي للعصر ، وان يسعى لفهم كيفية تفكير اهله وما كانت عليه اصنافهم

ومقولاتهم وقيمهم ، وحتى انه حاول الكلام بلغتهم ، ومن ناحية ثانية فان جعيط حين حاول ان يدرك بوضوح كثرة المعطيات ، وان يحلل البنى ، وان يكتب تاريخاً شمولياً ، انما اراد ايضاً ان يروي ان يخبر واكتنه من خلال الرواية هذه المرحلة الغنية بالرجالات والاحداث وتوصل في نهاية المطاف الى ان يعيش مع هؤلاء الناس وهاته الاحداث .

اننا نجد مؤرخين للاسلام كثيرين سواء في الغرب او في العالم الاسلامي نفسه ، ومع هذا فالمؤرخ لا يخامره الانطباع بأن الحقبة المعنية قد درست جيداً . فقد اكد جعيط ، انه لا يعرف في اللغات الاوروبية كتاباً واحداً عُنى عناية كافية بهذه المرحلة التي يعود اليها تصور الامة الاسلامية والتي غذت المتخيل الجماعي . وقد ذهب الاعتقاد ، الى ان بعض المستشرقين ممن اهتم بالموضوع قد توصل في بحثه عن تاريخ الفتنة الكبرى الى ضبط منطلقاتها الاولى وتبين اسبابها الظاهرة والخفية .. ولكنهم لم يتجاوزوا النظر في السياقات التي ظهرت فيها لفظة فتنة دون محاولة جادة لفهم الاسباب التي ادت الى تصدع كيان الدولة الاسلامية وهي في عز سؤددها . فلم يرجعوا بالفتنة الى ما قبل مقتل عثمان وقصرها على معناها المتداول : حرب اهلية واضطرابات كبرى . وهو فهم قاصر في نظرنا لان جذور الفتنة الكبرى وارهاصاتها الاولى ـ كما اسلفت ـ قد سبقت مقتل عثمان بحوالي خمسة وعشرين عاماً .

ان كتباً عديدة وضعت في شخصية الرسول ، وتواريخ كثيرة للاسلام ، لكن ليس ثمة عن الراشدين دراسة جامعة واحدة . وحده طه حسين عكف على قراءة هذه الفترة في كتابة " الفتنة الكبرى " (٣) وعدنان محمد ملحم في كتابه " المؤرخون العرب والفتنة الكبرى " (٤) حيث تناول دراسة مواقف اربعة مؤرخين عاشوا القرنين الثالث والرابع الهجريين . ودرس خلفياتهم الاجتماعية والثقافية والسياسية ، وبحث في مصادر رواياتهم عن " الفتنة " وميول رواتها واتجاهاتهم ، واثر ذلك على مواقفهم منها . واوضح مفهوم " الفتنة " عندهم ، واكد وجود ترابط وثيق بين تراث المؤرخين الفكري وعلاقاتهم السياسية واتجاهاتهم . وكذلك كتب محمد المختار العبيدي

" قراءة جديدة للفتنة الكبرى "(٥) الذي ارجع الفتنة الكبرى الى يوم السقيفة وليس الى يوم مقتل عثمان واوصلها الى مقتل علي .

يقول جعيط ، عن كتاب طه حسين " الفتنة الكبرى " انه عندما اعاد قراءته لدى شروعه بوضع كتابه ، لفت انتباهه مرة اخرى طابعه الادبي العالمي ، ولاحظ فيه ايضاً تقدماً كبيراً بالقياس الى المعرفة التاريخية . ومع هذا فلم يشعر ازاءه بالاكتفاء حقاً ان كلمات : كالاكتفاء او الارتواء او الشبع .. هي هنا في مكانها تماماً . فقد كان الامر يتعلق بجوع ، بعطش ، بفهم التاريخ .. تاريخ ، نجدنا مجابهين فيه بموقفين متكاملين في قصورهما ، متكاملين في سلبيتهما . هناك اولاً ازدراء الغرب الصريح احياناً لتاريخنا القديم منه والحديث . وثانياً النرجسية المضخمة لدى العرب ومغالاتهم في تمجيد الماضي من دون معرفة حقه بدقائقه وتفاصيله . هذا كله دفع المؤلف جعيط الى تجريب بحث علمي ، واثبات ، ان وضع دراسة تاريخية للقرن الهجري الاول ممكنة تماماً .

ان اشكالية الروابط بين الدين والسياسة من خلال دينامية الفتنة كانت على امتداد هذا الكتاب مركز اهتمام المؤلف وشواغله ، تجعلنا نطرح الاسئلة : هل كان الأمر متعلقاً بصراعات سياسية ام بصراعات دينية ؟ هل كان يتعلق بسلسلة مطامح من هنا وهناك ، بغية الاستيلاء على الحكم ، أم انه كان متعلقاً بأهواء وانفعالات دينية خالصة ؟

إن الأمر يتوقف على مراحل تطور الفتنة ، كما يتوقف ايضاً على المتنازعين من ابطال القضية ومحركيها . فالقراء او المقاتلون ـ القارئون للقرآن ـ المسببون الاوائل للفتنة ، كانوا يقاتلون بولع في سبيل تطبيق القرآن الكريم في شؤون المسلمين . لكن معاوية في اخر المرحلة كان قد كشف عن مطامحه في الوصول الى السدة العليا للحكم . كذلك كان علي يدافع عن شرعية خلافته بأسم سابقته في الاسلام ، أي كان ينافح عن سلطة سياسية بأسم مقولات وقيم دينية .

وحقيقة الأمر ، ان الديني والسياسي ممتزجان او من الطبيعي ان ترجع الى الديني اولاً ، امة قامت على اساس دعوة دينية في البداية ، على ميتاتاريخ

نبوي ، على كتاب مقدس ، وان يظهر لها دينياً كل شيء بما في ذلك وبشكل خاص السياسي . لكن كل واحد من المتنازعين له تأويله الخاص لهذا الديني الموظف في السياسي . فقد كان القراء الذين قتلوا عثمان ، الخليفة الشهيد في نظر الآخرين ، يتمسكون بحرفية الكتاب ولا زمنيته ، لينهلوا من معينه كل طاقتهم الثورية ويتخطوا قيم القيادة التاريخية دون ان يكون لديهم فكرة واضحة عن أي شكل آخر للقيادة والزعامة . فبعدما قتلوا عثمان سيقفون الى جانب علي لينتهوا الى اعلان وقوفهم ضده ، حين شكلوا اول حزب سياسي ـ ديني في الاسلام ـ حزب الخوارج ـ .

كان القراء يمثلون قوة جديدة مؤدلجة جداً ، شديدة الانطباع بالقرآنية ، ويمثلون في آن واحد الجانب الثوري والوجه الارهابي للفتنة . اما القوى الاخرى في التاريخية الاسلامية ، فكانت مجسدة بشخص الاموي معاوية واتباعه في سوريه . فقد كان هو ايضاً يحارب في سبيل فكرة مُقنَّعة بحجاب الدين ، اذ لم يكن ثمة من يقاتل في خلال الفتنة دون معتقد او قناعة ، كان معاوية يحارب في سبيل رفع الظلم عن عثمان وفقاً للقصاص الذي يأمر به الله .

لقد كان طارئاً جديداً بمقدار عدم اشتراكه ومساهمته في المأثرة النبوية ، وبقدر ما كانت أسرته بالذات قد حاربتها ، لكنه كان يمتلك قوة ضاربة كبيرة ، وكان ممتلكاً لقضية لها ما يبررها ولحس استراتيجي مرموق . وخلافاً للقراء ولمعاوية كانت عائشة ام المؤمنين وطلحة والزبير من جهة ، وعلي بن ابي طالب من جهة ثانية ، هم بالذات رموز الاسلام التاريخي ، المجللَّين بالمناقب والمفاخر .

ثمة شيء يتعين تميزه ، هو ان تلك الانقسامات الاساسية في قوى الفتنة المتنازعة ، لن تبني وفقاً لمنطق الجديد والقديم بل وفقاً لدينامية ادق ، بحيث يكون امامنا تسلسل الاحداث التالي : القراء يقتلون عثمان ، الخليفة الثالث ، بأسم بعض الافكار ، يقع اعلان علي خليفة ، والقراء مثل اكثرية الامة ينضون تحت رايته ، عائشة ارملة الرسول ستثور مع الصحابين البارزين طلحة والزبير ، الممثلين هما ايضا للاسلام التاريخي ضد علي ، يطالبان بالثأر لـ عثمان ، بعد هزيمتهم ، يدخل معاوية في

اللعبة بأسم المطلب عينه ، ويقدم نفسه لأمد طويل كخصم لعلي ، اتباع علي ينقسمون على انفسهم ، ومن هذا الانقسام تتولد حركة الخوارج ، وفي النهاية يقتل علي على ايدي هذه الحركة الخارجية بالذات . والامة في حال من الانقسام لا مخرج له .

اخيراً ، ينتقل الحكم الى معاوية ، مما يعني ان قضية عثمان قد فازت في نهاية المطاف ، ولكن ما هو ادهى واشد هو انها انتصرت بمفارقة لم تتوقف عن هز الوجدان على حساب علي ، ابن الاسلام المحض ، وعلى حساب القراء ايضاً الذين كانوا قد اعتقدوا انهم سيصلحون حكماً منحرفاً باللجوء الى احكام الكتاب وتعاليمه . الامر الذي يعني ان بذور المطالب والمنازعات المقبلة كامنة هنا وانها تنتظر الظهور والبروز بموجات تشنجية ، ومع ذلك ، قامت الدولة الأموية بأعباء الامبراطورية في صفائها الأثني ووسعتها في غضون ما يناهز القرن ، كما انها ارست قواعد الحضارة الاسلامية ومرتكزاتها .

هذا من حيث الطرح ، فماذا عن المنهج ؟

لقد اتجه جعيط في مساره البحثي نحو اتجاهين :

الاول ـ اتجاه فكري وفلسفي يعالج فيه القضايا الكبرى المطروحة على الضمير العربي في السياسة والمجتمع والدين .

والثاني ـ اتجاه نحى فيه منحى المؤرخ الصارم للاسلام المبكر .

منهج جعيط يدخل في الاتجاه الثاني ، أي اتجاه الباحث والمؤرخ الا انه بالرغم من الصرامة النقدية للمصادر وسعة الاطلاع على المراجع العربية والغربية على السواء ، والألتزام بمنهجية تاريخية صميمية فهو كتاب يداخله في طيات العرض والتحليل فكر وتفكير ونظرة ، بقدر ما يبتعد عن الادلجة والمواقف الايديولوجية ، والتأويلات العريضة الواهية .

هذه الطريقة هي التي تواخاها هشام جعيط بحسه العربي والاسلامي العميق وتكوينه التاريخي الصميم ، مؤهل لاخراج كتاب بهذا الطرح والتناول ، بعيد كل البعد عن التقليدية كما عن أي فكر تحديثي تبسيطي .

يقول جعيط بهذا الصدد : إن باحثاً

، خصوصاً في التاريخ لا يضع اهدافاً لدراسته بادىء بدء ، بل يتبع اذا جاز التعبير روحه ، ويرى الى النتائج وهي تتجلى اثناء العمل . المنهج هو اعدادك انت الدارس ـ يقول جعيط ـ انه تجربتك ، توجهاتك . مع هذا ، فقد كان هناك بعض العناصر الواعية . يذكر منها ، التشبث بقراءة منصتة للمصادر ، قراءة للقراءة ، قراءة نقدية ، مفكر بها ، متفحصة ، تقييمية . وكذلك التصميم على تقديم تاريخ شامل . بمعنى تاريخ مجتمع تجتمع فيه خيوط السياسي والديني والانتربولوجي والاجتماعي والاقتصادي .

هذا هو ما يدعى بالتاريخ الشامل ، والتعبير ليس من المؤلف كما ذكر به هو نفسه وانما هو صيغة قائمة ومتعارف عليها . يكون هنا ملتقى روافد عديدة . وعلى المؤرخ ان يشغلها دون ان نشعر بذلك . بمعنى انه لا يقول لنا في لحظة معينة انه الآن بصدد تناول الجانب الديني ، وفي لحظة أخرى الجانب السياسي ، وفي سواها البعد الانتربولوجي ، بل يدفع جميع هذه الخيوط الى اللعب من دون ان يثقل على القارىء ، ومن دون ان يهز له اجراساً منبهة في كل مرة .

من هنا ، أيثار جعيط للطريقة السردية او لتقنية رواية التاريخ . قال بهذا الصدد : ان هذه الطريقة شهدت في العقود السابقة بعض الانحسار ثم عادت بقوة منذ اكثر من عقدين . يتعلق الامر ضمن هذا التناول او الاسترجاع السردي او الحكائي بتجميع هذا العالم الدينامي ، والتعريف بهذا الوجه من وجوهه ، وتحديد ذاك ، والدخول بل العيش في الطور التاريخي رهن الدراسة .

اراد جعيط هنا ، ان يمنح القراء خيطاً يقودهم في قراءة الحقبة المعنية . مهما كان هؤلاء القراء ، علماء عارفين بالموضوع المعالج او جاهلين بهذا كله ، لا يتمتعون الا بثقافة عامة . وكان يتعين تناول الحقبة منذ بدايات الاسلام ، فقد كان من المتعذر توضيح ما هي ـ الفتنة ـ من دون عرض ما سبقها وما كان يعمل وراءها من بنيات اجتماعية من جديد ، وإذا كان المؤرخون قد أخفقوا في نظر المؤلف حتى الآن في معالجة ـ الفتنة ـ ضمن حجمها الحقيقي ، فلانهم لم يأخذوا بنظر الاعتبار الكامل المسيرة الاسلامية وجميع عناصرها المكونة

. هـذا كلـه دفـع المؤلـف الى مراجعـة بعـض الافـكار الثـابتة والاعتبـارات العنيـدة التـي واجههـا اثنـاء بحثـه .

أراد جعيـط اخـيراً ان يقـدم مـا يقـترح دعوتـه بـ ـ التاريـخ المفهـوم ـ تقديـم مسيـرة قابلـة للفهـم والتعقـل بالمعنـى الهـوسرلي ، الفلسـفي ، للكلمة . يقصـد بالفهـم ، الانفتـاح الى الحقبـة المعالجـة موضوعـة الدراسـة . وهنـا يكمـن في رأيـه الحـس الخاص بالمـؤرخ . الانفتـاح الى الحقبـة لا انطلاقـاً مـن آرائـنا وسـلم قيمنـا وإيديولوجياتنـا المعـاصرة وانـما التطلـع الى العنـاصر الفاعلـة فيها وهـي تتحـرك انطلاقـاً مـن قناعـات الحقبـة ومعاييرهـا وقيمهـا الخاصـة . لكـن بالمقابـل ، فـان الهمـوم المعاصـرة ، همـوم الحاضـر ، تظـل حـاضرة ايضـاً ، ومـن هنـا اهميـة التاريـخ كميـدان او علـم . هـذا خصوصـاً عندمـا تكـون الحقبـة المدروسـة حقبـة أنموذجـاً ، كمـا هـي عليـه الحقبـة المدروسـة في كتـاب جعيـط . حقبـة مـا فتئـت تسـتوقفنا وتسـتنطقنا ، خصوصـاً في العقـود الاخـيرة .

ويشيـر جعيـط ، بأنـه لم يعـن هنـا بتقديـم عـبرة مبـاشرة للحـاضر ولكنـه يقـدم بـين الفينـة والفينـة تـلميحات واشـارات حـرة يمكـن ان يسـتخدمها كمـا يشـاؤون كل مـن يريـدون قـراءة حاضرهـم . وفـي أسـاس هذا الحاضـر يقـوم في الايجـاب كـما في السـلب تاريـخ عقـود الاسـلام الاولى .

وينـبه جعيـط هنـا الى غيـاب مؤسـف . ان التـاريخ الاسـلامي العريـض وفي جميـع اندفاعاتـه الحضـارية وانتكاسـاته واسـتعاداته مـن العـصر الامـوي والعبـاسي حتـى الامبراطوريـة العثمانيـة ، ليـس حـاضراً في اذهـان الكثيريـن منـا حضـور هـذا القـرن الهجـري الاول وبالاخـص السـنوات الخمسـين الاولى منـه .

هـكذا يعـرب جعيـط عـن أسـفه مـن غيـاب هـذا التاريـخ الطويـل وغموضه في الأذهـان عـلى كثـرة الـدراسات الموضوعـة حولـه ، وفـي الوقـت نفسـه فهـو يؤكـد انـه لم يغـب عـن بالـه ابـداً وهـو يعالـج موضـوع بحثـه ، انـه انـما يعالـج حقبـة وذات حضـور قـوي في ذاكـرة الجميـع .

هـذه هـي ابـرز التوجهـات التـي قـادت مؤلـف الفتنـة في عمـله ، الـذي قـال في خاتمـة كتابـه : إن مـا طمـح اليـه هـو تقديـم قـراءة نقديـة لهـذا التاريـخ . ذلـك ان قـراءة الطـبري او ابـن الأثـير مـرة او مرتـين هـي شـيء

وممارسة القراءة النقدية الفاحصة هي شيء آخر . وهنا يرجو جعيط كل من يتوجه لقراءة التاريخ هذا الا يكتفي بقراءة خارجية بل وحتى دينية ، وإنما يقرأة في عبقريته الخاصة ويمارس النقد لان ما يمارس اليوم بإزاء هذا التاريخ لا يعدو ان يكون تلاعباً بالتاريخ وبالخطابات . انها اخيراً دعوة يوجهها جعيط لتسريع ولادة جديدة او نهضة لهذا الوعي التاريخي الأصيل .

ان اطروحات جعيط تطرح سؤالا عميقا ، الا وهو كيف يمكن ان يكون المرء مؤرخاً في المجتمع العربي ـ الإسلامي الراهن ؟ ذلك ، ان الحقبة التي درسها جعيط ، وهذا ما أشار اليه بنفسه ، هي من الاهمية التأسيسية بحيث لا نقدر ان نغفل الوشائج المباشرة التي تربطها بالتاريخ المتحرك الذي نعيش .

أننا من خلال قراءتنا لكتاب جعيط وافتتاننا به ، نطرح ملاحظة منهجية انطلاقاً من استخدامه مفردة ـ القراءة / بالفرنسية **Lecture** ـ باعتبارها الحركة الاساسية لكتابه . حيث ان هذه المفردة تنطلق من تراث فرنسي في الصميم منه . وان هذه المفردة غير قابلة للترجمة العربية بهذا المعنى ، وقد اعتاد الفكر العربي ان يستخدم محلها مفردة اخرى هي " التأويل " كل قراءة هي تأويل ، مسيرة متناسقة متألقة يتأمل فيها القارىء ، وهو هنا المؤرخ ، الوقائع التي إمامه وعليها يحكم .

إذا سلمنا بهذه الحقيقة ، فالمشكلة في نظرنا تتعقد اكثر في حالة القراءة التي يقدمها جعيط للفتنة الكبرى ولمجمل القرن الاسلامي الاول . فهو لا يقدم قراءته لهذا التاريخ فحسب وإنما قراءته متأخرة لهذا التاريخ . لان الوثائق المتوفرة لدينا عن تلك الحقبة والتي يعتمدها كمصادر لبحثه ، ليست شهادات مباشرة لأناس عاشوا الوقائع وعاصروها ، وإنما تواريخ وضعها أناس لاحقون ، الطبري وغيره . وهنا ، ينبغي الأخذ بنظر الاعتبار بحقيقة كونهم يقدمون قراءاتهم الشخصية لما وصلهم من تواريخ شفهية تحمل هي الاخرى بصمات رواتها وأثار قراءاتهم الشخصية لما وصلهم من تواريخ شفهية تحمل هي الاخرى بصمات رواتها و وأثار قراءاتهم وأهوائهم الشخصية .

قراءة لقراءات . اذن ، مع كل ما

يتضمنه هذا من مزالق وصعوبات ومفارقات . وفي أولها مفارقة الرواية التي تتقدم باعتبارها مباشرة ، وهي ليست في الواقع كذلك . يورد الطبري مثلا : قالت عائشة ... ولكن من يثبت ان عائشة في زمنها الذي هو ليس زمن الطبري قالت ذلك ؟ ينعتون أبا بكر مثلا بأنه خليفة الرسول ، لكن النقود الأموية التي بقيت لنا لا تورد للخلفاء مثل هذه الصيغة ، ولو كانت موجودة في عهد الخلفاء الراشدين فلم لم يؤخذ بها بعدهم ؟

هذا كل هو الذي في نظرنا الى تحبيذ الصيغة الأدبية والروائية ، وهي موجودة ، قبل جعيط ، لدى الطبري نفسه ، بل حتى لدى فيلهاوزن معاصرنا . صيغة أدبية تمنح الكتاب وثائقه ، لانه لو حلل جميع الوثائق بالتفاصيل لكسر سحر الكتاب ، وعطل فعل القراءة ، واعاق مساهمة القارىء . لكن على الرغم من مما سبق ذكره ... فإن المؤرخ في عمله يسقط الكثير من الأقوال والوقائع التي لا يراها منسجمة مع منطق الحقبة ، مع خطابها ، ومع معنى الحدث الذي هو بصدد معالجته . ما يهم المؤرخ هو استنباط المعنى والعناية بالتشكيلات الكبرى للتاريخ المدروس ومنطقه العميق . والوقوف على خطاب الحقبة هذا انما ينتج معاشرة طويلة للنصوص ، وقراءة مرهفة للعناصر تجعل المؤرخ لا يأخذ بالكثير ويتمسك بالقليل ...

لأن قراءة النصوص ليست بالأمر الهين ، فالنص يقول اشياء ويخفي اشياء .

لقد حاول جعيط ان يمارس تاريخاً تفهمياً الى حد بعيد ، وان يغوص حتى قلب المناخ الذهني والعقلي للعصر ، وان يسعى لفهم كيفية تفكير أهله ، وما كانت عليه أصنافهم ومقولاتهم وقيمهم . وحتى انه حاول ـ كما أشار ـ الكلام بلغتهم . ومن ناحية ثانية ، فأنه في الوقت الذي حاول أن يدرك بوضوح كثرة المعطيات ، وان يحلل البنى ، وان يكتب تاريخاً شمولياً ، أنما أراد ايضاً ان يروي ، ان يخبر ، مكتنهاً من خلال الرواية ، هذه المرحلة الغنية بالرجالات والإحداث ، وأن يتوصل في نهاية المطاف الى ان يعيش مع هؤلاء الناس وهاته الإحداث

***خاتمة**

ان البحث الذي تجشم جعيط الخوض فيه ليس من سهل المواضيع ولا من جديدها ، ولكنه موضوع يظل مع ذلك بكراً وكل تاريخنا سيظل بكراً ما لم نجرد القلم بلا خوف ولا مواربة لنبشة والسريان في شراينه كما يسري هو في شرايين وجداننا . وليس المهم ان نتفق وانما المهم ان نسعى الى الاتفاق لا في النتائج وانما في المناهج .

ـ فهل نكتب التاريخ العربي الاسلامي بقداسة ؟

ـ هل تتحكم فينا القداسة الى درجة ترجيح ما يدعم القداسة حتى وان كان ضعيفاً ام نتجرد من ذواتنا لنكتب تاريخاً او نعيد تركيب الاحداث وتفهمها على اقرب صورة مما حدث في الماضي فعلاً ؟

ليس الامر باليسير الهين ولكن البحث مغامرة شجاعة لا يهابها الا عاجز او مهزوم . ولعل دراسة الفتنة التاريخية قد تحولت في بعض الاحيان الى فتنة باحثين وقراء لانها من المواضيع التي تعيد الى الوعي كثيراً من المشاعر والافكار الكامنة في باطن النفوس ، ولانها مسألة مركزية في تاريخ العرب والمسلمين .

ـ هل تولدت الانقسامات التي ستحدث فيما بعد ؟

ـ هل هي المسؤولة عن الانقسامات المعاصرة ؟

ـ هل حسم مسألة انتقال السلطة في سقيفة بني ساعدة كان هو السبب في تكدر الخواطر واندفان الضغائن ؟

***الاحالات**

١- كتاب هشام جعيط الطبعة الفرنسية :

Hicham Djait – La Grande Discorde , Religion et Politique dans L, Islam des Origines , Gallimard , Paris , 1989 .

الطبعة العربية : هشام جعيط ـ الفتنة ، جدلية الدين والسياسة في الاسلام المبكر ، ترجمة ـ خليل احمد خليل ، ط٤ ، دار الطليعة ، بيروت ، ٢٠٠٠ .

٢- القلهاتي ـ خلافة عثمان وعلي (من كتاب الكشف والبيان) ، تحقيق ـ محمد بن عبد الجليل ، حوليات الجامعة التونسية ، العدد ١١ (١٩٧٤)

ص ١٨٨-١٩٠ .
٣- طه حسين ـ الفتنة الكبرى ، ط٦ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
٤- عدنان محمد ملحم ـ المؤرخون العرب والفتنة الكبرى ، دراسة تاريخية منهجية ، ط٢ ، دار الطليعة ، بيروت ، ٢٠٠١ .
٥- محمد المختار العبيدي ـ قراءة جديدة للفتنة الكبرى ، ط١ ، مؤسسة الانتشار العربي (بيروت) ودار محمد علي للنشر (تونس) ، ٢٠٠٨ .